

الشعائر الحسينية.. عبادة نابعة من الذات



«الفطرة» السليمة هي التي تحث الإنسان على محاولة الانقياد ونيل الرضا الإلهي والتسليم لأمره تعالى، فالعبادة نابعة من الذات الإنسانية السليمة والشعائر الإلهية إحدى مصاديق هذا التسليم تعالى والمودة التي أمرنا الله بها وهي أجر الرسالة (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عِلَافَةً أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (الشورى/ 23)، فهي تلتقي مع الشعائر الإلهية لأنها تطهر المحبة المكنونة، فهي المرحلة المتقدمة التي تحتاج إلى مؤنة وجب شديد وشوق مؤكد حتى تظهر بمظاهر الوفاء وهي مرحلة الصدق والعلاية بما يترتب عليها من الانتصار لمن يواليه وهذه المظاهر تتشكل بأشكال حسب مراتب الحب والولاء وهي مقولة قابلة للتشكيك بمراتبها.

وقد عبّر القرآن الكريم عنها بالشعائر وهي جمع شعييرة وهي العلامة وشعائر الله الأعلام التي نصبها الله تعالى، فهي تظهر تارة في السعي بين الصفا والمروة لقوله تعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) (البقرة/ 158)، لأن السعي والطواف بينهما يؤدي من قبل النفوس الطاهرة (ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَلَا يَزْنِهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) (الحج/ 32)، والحالة الخاصة للإنسان المؤمن التي هي كاشف عن تقوى القلوب وفيها تعظيم للشعائر الإلهية النابعة من التقوى والرضا للأمر الإلهي إضافة التقوى إلى القلوب للإشارة إلى أن حقيقة التقوى وهي التحرز والتجنب عن سخطه تعالى والتورع عن محارمه، أمر معنوي يرجع إلى القلوب وهي النفوس ولا تقتصر على الأعمال الجسدية فحسب إذ العمل قد يكون أعم من الطاعة والمعصية فيمكن أن يكون رياءً مثلاً ولا هي من العناوين المنتزعة من الأفعال كالإحسان مثلاً بل هي ترجع إلى التسليم بالأمر إلى النفوس وتقوى القلوب آخر مراحل الطاعة المحضة وهي روح العبادة فتعظيم الشعائر في الحقيقة لا يرجع إلى ممارسات الجسد فقط بل التعظيم يرجع إلى تفوق النفوس وتقوى القلوب فما هو بالعرض ينتهي إلى ما هو بالذات.

فالقرآن الكريم عندما جعل أجر الرسالة المودة في القرية وجعل السبيل إلى الله هي المودة فقال تعالى: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عِلَافَةً مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهًا رَبًّا سَبِيلاً) (الفرقان/ 57)، فالسبيل إلى الله تعالى هم أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام والشعائر الحسينية أوضح مصاديق لشعائر أهل البيت - عليهم السلام - فالحسين (ع) مصباح الهدى وسفينة النجاة وقول النبي الأعظم "حسين مني وأنا من حسين" حيث كان بقاء الشريعة المحمدية بجهاده لذا فقد أقدم سيد الشهداء على محاولة الإبقاء على الشعائر الإلهية بتضحيتها بعد ما استباح يزيد شعائر الله تعالى ومن ثم أمعن في هتك الشعائر بهدم الكعبة المشرفة واستباحة المدينة المنورة، ومن هنا حاول الإمام زين العابدين والأئمة من بعده عليهم السلام أحياء الدين بواسطة إظهار مظلومية الحسين (ع)

والطلب بثأره فجاءت الروايات المستفيضة بإظهار الجزع والحزن عليه وهي تغطي جميع أشكال الشعائر لأنها مصداق للجزع والحزن. والمشي إلى مقامه الشريف وزيارته (ع) وأحياء أمره أحياءً لأمر الدين ومصداقاً لقول الرسول الأعظم حسين مني وأنا من حسين بغض النظر عن أشكال الشعائر حتى التي يحسبها ضعفاء الإيمان والنفوس إنها شعائر قديمة أو غير ملائمة للعصر أو غير حضارية فهل الصفا والمروة من شعائر الله؟ كذلك لقد جعل البدن. فقال الله تعالى: (وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) (الحج/ 36). والمراد بالبدن الشاة التي تساق وهو الهدى وتشعر، أي يشق سنامه من الجانب الأيمن ليُعلم أنها هدي على ما في تفسير أئمة أهل البيت - عليهم السلام - ويؤيده ظاهر قوله: (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (الحج/ 33). ثم ذكر بعد ذلك والبدن جعلناها إلى آخره كما في تفسير الميزان مجلد 14 صفحة 373 فإن سبحانه وتعالى جعل البدن شعيرة من شعائر الله في الحج حتى يتعبد الإنسان بامر الله وهذا التعبد من تقوى القلوب فالشعائر الحسينية إذن بما فيها من جمال في السيرة وإظهار الحزن بأشكال مختلفة كلها أصبحت شعيرة لأنها مصداق لتعظيم شعائر الله ولا يسمع لقول من يدعي الثقافة والعصرية بأنها شعائر قديمة كما دفع الله سبحانه وتعالى الدخول المتوهم عن البدن أن الله له نفعاً في هذه الضحايا ولجودها ودماؤها فأجاب (لَنْ يَنْدَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنْدَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) (الحج/ 37)، إلى آخر الآية، لأن الله ما ينزه عما يحتاجه العباد فأجيب بتقرير الكلام وأن الأمر ليس كذلك لكن هذه التضحية والأشعار يتصف سائقها بصفة معنوية ويتقرب بها وهذه الصفة من شأنها أن تناول رضا الله سبحانه فهي تصعد إليه تعالى وتقرب صابها منه تقريباً لا يبقى بينه وبين الله حجاب يحجبه عنه (لَنْ يَنْدَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنْدَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ).

كذلك الشعائر الحسينية تقرب إلى الله بالصفة المعنوية بأي شكل كانت وتقرب صاحبها، فهي كلها من مصاديق إظهار الجزع والحزن كما في الرواية الصحيحة سواء كان التمثيل أو ضرب السلاسل فكل نوع يناله التقوى منكم لا تصاف صاحبها بالتعظيم للشعائر، ونستعلم ليست جديدة ففي كل أمة لها شعائرها الخاصة كما قال الله سبحانه: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيُذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُهُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) (الحج/ 34).

والمنسك مصدر ميمي واسم زمان ومكان فكل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء وأيام عاشوراء وكربلاء للأمة منسكاً وفيها تقرب الناس إلى الدين الحنيف ويذكروا الله فيها ففيها إعلاء لكلمة الله وولاية أهل البيت (ع) فعن الإمام الباقر (ع) ما نودي بمثل ما نودي بالولاية وورد عن أهل البيت أن الدين هو حبهم وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله والبراءة من أعداء الله وأظهر مصاديقها الشعائر الحسينية التي أراد الباري تعالى بقائها ورفعها (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) (النور/ 36).